وزْن الماضي - ٧ -

وقال صاحب سرّ (م) باشا : إنِّي لجالسٌ ذات يومٍ وفي يدي كتابٌ لبعض المتفلسفةِ من مَلاحِدَة أوربة الَّذين يريدون أن يفهموا ما لا يُفهم ؛ وكان الباشا قد رآني مرَّةً أنظرُ فيه ، وأتدبَّرُ مسائلَه الغامضة ، فقال لي : يا بنيَّ ! إنَّ أحدَ الكلاب كان شاعراً فيلسوفاً ، فنظر ليلةً في النُّجوم ، فراعته ، وحيَّرته ؛ فآلى أن يفهَمَها بعقله ، وتفرَّغ لدرسها مدَّةً طويلةً ، ثُمَّ وضع فيها كتاباً نفيساً ضخْماً ، كان أعظمَ كتبِ الفلسفة وأشدَّها غموضاً عند الكلاب ، وكان اسمُه : العظام المبعْثَرةُ فوقنا . . . (١) .

قال : فأنا جالسٌ أقرأ هذا الكلام الَّذي لا صحيحَ فيه إلا أنَّه غيرُ صحيح ؛ إذ دخل عليَّ كاتبٌ متفلسِفٌ مُلْحِدٌ من هؤلاء المدخُولين في عقولهم ، المفتونين بأوربة ، ومذاهِبها ، وعُلْويَّاتِها ، وسُفْلِيَّاتها . . . وهو يكتبُ في الصُّحُف ، ويؤلِّف الرَّسائل ، وقد جاء يَسْتَصْرِخُ الباشا على فلاَّحٍ شاركه في زراعة أرضه ، فزرعَه الفلاحُ فيها ، وحَصَده ، ودَهَاه بكَيدِه ، وابتلاه بغِلْظَته ، وتهدَّده بالنِّقمة .

وكان هذا الفلاَّحُ السَّاذَجُ الغريرُ قد سبقَه إليَّ ، وعرَّفه لي تعريفاً قاموسيّاً محيطاً من مادة كَفَر ، يكْفُر . . . ثُمَّ قال بعد ذلك : إنَّه (بيَّاع كلام) يَصْدُق ويكْذِبُ حسب الطَّلب . . . والذِّمةُ نفسُها ليست عنده إلا (عمليَّةٌ حسابيَّةٌ) وهو في أقوى جهاتِهِ لا ينفع الدُّنيا بما تنفعُها به البهيمة من أضعفِ جهاتها .

أمَّا الكاتبُ ، فيقول عن هذا الفلاح : إنَّه لا يدري أهو يُتمُّ بَهائمَه ، أو بهائمُه هي الَّتي تُتِمُّهُ ، وإنَّ الذي يرفعُ القضيَّةَ على مثلِ هذا المخلوق إلى المحكمة لا يكون إلا كالَّذي يُقَعْقِعُ بالعصا على جُحْرٍ فيه الحيَّةُ السَّامَّة .

ورأى المتفلسفُ الكتابَ على يدي ، فتهلَّل ، واستبشر ، وقال لي : هذا نَسَبٌ بيننا . . . فأدركتُ من كلمته هذه جملتَه وتفصيلَه ، وخُيِّلَ إليَّ : أنِّي أرى فيه نفسَه

---

(١) لا ريب أن المؤلف قد بحث في كتاب « الوسائل العملية » للانتفاع بهذه العظام المبعثرة . (ع) .

الشَّرقيةَ كالمرأة المطلَّقة . . فقلت له : أنا اشتريتُ هذا الكتاب من أوربة ، ولكنِّي لم أشترِ منها دماغي .

وكلَّمتُه ، أستخرجُ ما عنده ؛ فإذا هو في قومه ، وتاريخ قومه كالسَّائح في بلادٍ أجنبية : يفتحُ لها عينَه ، ولا يفتح لها قلبَه .

* * *

وكان جريئاً في كلامه مع الباشا : يَطْرُدُ القولَ حيث شاء حقّاً وباطلاً ، ثُمَّ لا سِنادَ لرأيه ، ولا تثبيتَ لحجَّته إلا قولُ فلانٍ ، ورأيُ فلانٍ ، كأنَّ في رأسه عقلاً شحَّاذاً . . . ثُمَّ ذكر آخرَ الأمر ما جاء له ، فخجَّله الباشا ، وقال : هذه مسألة ككلِّ مسائلك : تحتاج إلى فيلسوفٍ أوربيٍّ . . . وأعرض عنه ولم يدخُلْ في شيءٍ من أمره .

ولمَّا انصرف ؛ قال الباشا : يحسِبُ هذا نفسَه عالماً ، وهو صُعلوكٌ عِلْميٌّ . . وإنَّما يكون دماغُه ، وأدمغةُ أمثاله عند الفلاسفة والعلماء الَّذين يذكرونهم ، كما تكون سلَّةُ المهمَلاتِ عند الصَّحافيِّين .

إنَّ هذا الرَّجل يُتمُّ ضعفَ عقله في الرأي بقوَّة عنادِه فيه ، ليجعلَ له ثباتَ الحقيقة ، فيُظَنَّ حقيقةً كأنَّ خَضْخَضَةَ الماء باليد في وعاء صغيرٍ يَنقُلُ إلى هذا الوعاءِ طبيعة الموْج ، وعند أمثالِ هذا المفتون من الصَّعاليك العلميِّين : أنَّك إذا تناولتَ مسألةً فأخطأتَ فيها خطأً جرئياً ؛ فقد جعلتَها بخطئك الجريء مسألةً من العلم . . . وأنَّك إذا عاندتَ ، فثَبتَ الخطأ في وجه النَّاقدين سنةً ؛ كان حقيقةً مدَّةَ سنةٍ . . .

هم مفتونون زائغون ، ومن فِتنتهم : أنَّهم يَرون البعدَ بينهم وبين أهلِ الفضائل الشَّرقية كالبعد بين العالِمِ والجاهِل ، ولو حقَّقوا ؛ لرأوه بُعْداً في الغرائز ، لا في العقل ، أي : كالبعدبين الفُجور ، وما أشبَه الفُجورَ ، وبين التَّقوى وما أشبه التقوى .

زعم الأحمقُ : أنَّ خصمَه الفلاحَ رجلٌ راسخٌ في الماضي ، كأنَّه باقٍ في أمسٍ لم ينتقل منه ؛ مع أنَّ أمسِ قد انقطع من الزَّمن ، ثمَّ خرج من ذلك إلى أن الأمَّةَ يجب أن تنبذَ ماضيَها ، ثمَّ ادَّعى أنَّ الإسلامَ يتعصَّب للماضي . هذه ثلاثُ كلمات تخرجُ منها الرَّابعةُ التي سكتَ عنها . . .(١)

(١) الرابعة التي يستلزمها هذا السياق المنطقي : هي تجرُّد الأمة من الدِّين ، وذلك ما يعمل له بعض الصعاليك العلميِّين . (ع) .

وأنا لو شئتُ أن أسخَرَ من مثل هذا الصُّعلوكِ العلميِّ ؛ لما وجدتُ في أساليب السُّخرية أبلغَ من أن أبعثَ إليه بقارورةٍ فارغةٍ ، وأقول له : املأها لي من آراء الفلاسفة .

يَغفُلُ هذا ، وأمثالُه عن أنَّ الدِّينَ الإسلاميَّ لا يعرف الماضيَ بمعنى ما مضى على إطلاقه ؛ بل هو يشترط فيه ألا يخالفَ العقلَ ، ولا العلم ، وألا يناقِضَ الهداية ؛ ﴿قَالُوا۟ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۗ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ [البقرة : ١٧٠] وفي الآية الأخرى : ﴿قَالُوا۟ حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۚ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ [المائدة : ١٠٤] وفي الثالثة : ﴿قَالُوا۟ بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۚ أَوَلَوْ كَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [لقمان : ٢١] وفي الرابعة : ﴿إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ ﴿٢٣﴾ قَٰلَ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ ءَابَآءَكُمْ﴾ [الزخرف : ٢٣ ـ ٢٤] .

فانظر كيف صَوَّر ما نسمِّيه اليوم بالجمود في قوله : ﴿حَسْبُنَا﴾ ، وكيف صور ما نسمِّيه بالرَّجعية في قوله : ﴿نَتَّبِعُ﴾ ، وتأمَّل كيف رفض الجمودَ والرَّجعيةَ معاً في العلم ، والعقل ، والهداية ؛ أي في آثارها من العلوم ، والمخترعات ، والفضائل الإنسانيَّة ، وكيف أبطل في تلك الثَّلاثِ الاحتجاجَ بالماضي بهذا الأسلوب الدَّقيقِ العالي ، وهو قولُه في كلِّ آيةٍ : ﴿أَوَلَوْ﴾ ﴿أَوَلَوْ﴾ لم يغيِّرها ؛ بل كرَّرها بلفظها أربعَ مرات .

فالمعجزُ هنا مجيءُ الآيات بهذه الصُّورة المنطقيَّة لإسقاط حجَّتهم ، ونفي معنى التَّقديس عن الماضي فيهنَّ ؛ إذْ كان العلمُ دائمَ التغيُّر ، وكان العقلُ دائمَ التَّجديدِ ، والإبداع ، وكانت الهدايةُ شديدةً على الطَّبيعة الحيوانيَّة التي هي ماضي النَّفس ؛ فكأنَّها جديدةٌ على النَّفسِ ؛ عند كلِّ شهوةٍ .

إنَّ الإنسانَ بماضيه ، وحاضرِه كأنَّه مقسومٌ قسمين ، يقولُ أحدهُما : أريد أن أكون . ويقول الآخر : أنا قد كنت . فالإسلامُ بهذه الآيات قد أوجبَ وزنَ الكلمتين في كلِّ زمنٍ بما هو الأصحُّ ، وبما هو الأنفع ، وبما هو الأهدى ؛ وباشتراطه الهدايةَ في جميعها أشار إلى أنَّ الكمالَ النفسيَّ للفرد يجب أن يكونَ مرتبِطاً بالكمال الإنسانيِّ للجنس .

وهذا معنىً عجيبٌ ، وأعجبُ منه ما ترى من أنَّ الإسلامَ قد أصلح فكرةَ الماضي ؛ فنقلها من معنى الآباء ، والأجداد للنَّاس إلى المعاني التي هي كالآباء والأجدادِ لإنسانيَّةِ النَّاس . والأخذُ (بالأهدى) في اجتماعِ أُمَّةٍ من الأمم ، إنَّما هو بعينه ناموسُ التَّرقِّي والتطوُّر .

ومن أدَقِّ الأسرار قوله : ﴿ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ ﴾ [الزخرف : ٢٢] فكلمة (أُمَّة) هذه لم يعرفها أحدٌ على حقيقتها ، ولم تفسِّرها إلا علومُ هذا الزَّمن ، فهي المشاعرُ النَّفسية الَّتي يتكوَّن منها مزاجُ الشَّعب ، وفيها يستقرُّ الماضي ؛ كأَنَّ الآيةَ قد عبَّرت بآخر ما انتهى إليه علماء النَّفس : من أنَّ الإنسانَ ابنُ أبويه وابنُ شعبِه أيضاً .

فالتَّعصُّبُ في الإسلام هو للعلم النَّافع ، وللمجد الصَّحيح ، وللهداية الباعثة على الكمال ؛ وتعصُّبُ الجيلِ لمثلِ هذا في ماضيه ، هو في اسمِه تعصُّبٌ ، غيرَ أنَّه في معناه إنَّما هو العملُ لتسليم مجدِ الأمَّة إلى الجيلِ التَّالي .

* * *